من آيات الله

خلق السموات والأرض

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

هذه آية من آيات القرآن الكريم، تذكر أن من دلائل وجود الله ، وآيات قدرته، خلقه السموات المزدانة بالكواكب، والنجوم الثوابت.

وخلقه السماء والأرض لم يكن باطلاً، ولم يقم على باطل، إنما كان حقاً، وقام على الحق.

ومن دلائل قدرته سبحانه وتعالى خلقه الأرض، ذات الجبال، والوديان، والبحار، والقفار، والحيوان ، والأشجار.

وحيثما مد الإنسان بصره وجد آيات الله تُطالعه فى هذا الكون الرحيب: السموات بأجرامها وأفلاكها، والأرض بما أودعها الله من خصائص فى تركيبها، ومن صلاح لنشوء الحياة فوقها. . كلها آيات تعلن عن نفسها، فيستشعرها القلب المؤمن، فتوقظ قلبه، وتؤكد الصلة بينه وبين مشاهد الكون. قال تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٤]. وقال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣].

فخلق السموات والأرض آية عظيمة، مشهود بما فيها من تصاريف الأجرام السماوية والأرضية وما هو محل العبرة من أحوالهما المتقاربة المتلازمة، كالليل والنهار.

وإن فى خلق السموات والأرض معناه: إنشاء هذا الخلق الهائل الضخم العظيم الدقيق الذى لا نعرف عنه إلا القليل.

هذا الحشد الذى لا يحصى من الأفلاك، والمدارات، والنجوم، والكواكب، والسدم والمجرات، لا تزيد الأرض الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها تكاد أن تكون لا وزن لها، ولا ظل.

ومع الضخامة الهائلة، ذلك التناسق العجيب بين الأفلاك، والمدارات، والدورات، والحركات، وما بينها من مسافات، وأبعاد، تحفظها من التصادم، والخلل، والتخلف، والاضطراب، وتجعل كل شئ فى أمرها بمقدار. ذلك كله من ناحية الحجم العام والنظام.

فأما أسرار هذه الخلائق الهائلة وطبائعها، وما يستكن فيها، وما يظهر عليها، والنواميس الكبرى التى تحفظها، وتحكمها. فهذا كله أعظم من أن يلم به إنسان. وما عرف عنه إلا أقل القليل. قال تعالى فى سورة ص: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً**﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى فى سورة الدخان: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ**﴾ [الدخان: ٣٨].

لقد عبر القرآن الكريم فى كثير من الآيات، عن حكمة الله بقيام السموات والأرض، ذلك أن تدبر ما فى خلق السموات والأرض من دقة، وحكمة، يوحى بأن هذا الوجود قائم على الحق.

والمؤمن المفكر فى ملكوت الله، وما خلق من سموات وأرض، وما بث فى الأرض من كل خَلْقٍ، بين بديع ناطق، وشنيع صامت، وأليف، ووحشى، ونافع وضار، ومستخدِم، ومُستخدَم، وسهل ووعر، لابد أن يدرك بالفطرة السليمة، والعقل الواعى: أن هذا من صُنع من لا يُصنع، وخلق من لا يُخَلقُ.

ومما يلاحظ: إن فى الجمع بين خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان، فى قوله تعالى: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم**

وألوانكم﴾ إشارة إلى هذه الظاهرة التى لا يكاد يلتفت إليها الناس، من اختلاف ألسنتهم وألوانهم إنها وهى التى لا يكاد يلتفت إليها أحد، لا تقل عن خلق السموات والأرض وما فيهما من أجرام، وعوالم، فى الدلالة على قدرة الخالق، وجلاله، وعظمته، وعلمه، وحكمته.

إن كل إنسان من الناس هو عالم قائم بذاته، فى ظاهره وباطنه. ففى كل إنسان آية متفردة من آيات الخلق، وقدرة الخالق. فعلى حين يبدو الناس وكأنهم ثمار شجرة واحدة، إذ هم ثمار مختلفة الطعوم، والألوان، والأشكال، كل ثمرة لها طعمها ولونها وريحها..

إن العين لتأخذ الناس جميعاً، وكأنهم كائن واحد، فإذا عاد النظر إليهم فرداً فرداً كان كل واحد منهم كائناً قائماً بذاته، بما له من سمات وخصائص. فلكل إنسان نبرات صوته، ومخارج كلماته، وطبقات أنغامه التى تميزه عن غيره، فلا تختلط نبرة بنبرة، ولا يشتبه مخرج بمخرج، ولا تتماثل طبقة مع طبقة. وإن بدا فى ظاهر الأمر أن هناك تماثلاً وتشابهاً بين صوت وصوت، ونغم ونغم، فإن الحقيقة غير هذا، حيث توجد فروق دقيقة، وخطوط هندسية، غاية فى الدقة، تفصل بين صوت وصوت، وتحجز بين نغم ونغم، وكذلك الشأن فى الألوان، والأشكال، والصور. ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم**﴾ والمراد باختلاف الألسن: اختلاف اللغات من العربية، والفارسية، والأوردية وغيرها. وباختلاف الألوان: اختلاف الأمم فى ألوانهم. كالبياض والسواد، والصفرة والحمرة اختلافا به أمكن التمييز بين الأشخاص فى الأصوات والألوان. وهذا مما لاغنى عنه فى منازع الحياة، ومختلف أغراضها.

فكثيراً ما تَميَّز الأشخاص بالأصوات، وبذا نعرف الصديق من العدو، فنتخذ ما يلزم من العدة لكل منهما، كما نميز الأشخاص بلغاتها، فنعرف من أى الأجناس هى.. فالآية الكريمة: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم**﴾.

ربطت بين اختلاف الألسنة والألوان بخلق السموات والأرض. وهذا يشير إلى العلاقة الوثيقة بين اختلاف الألسن والألوان بخلق السموات والأرض. فاختلاف الأجواء على سطح الأرض، واختلاف البيئات، ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكى ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان مع اتحاد الأصل والنشأة فى بنى الإنسان. إن يد القدرة القادرة المحكمة قد أقامت الألوان والأشكال والصور، كل منها فى موضعه وجعلت بينها حاجزاً، فلا يبغى بعضها على بعض.

وهذا فى ظاهر الإنسان أما فى باطنه فالأمر أعجب وأغرب، فمنازع التفكير، ومناحى العواطف، ومشارب المشاعر، وخلجات الضمير، ووسوسات الأهواء، إنها أمواج متدافعة، على صدر محيط لا حدود له. ومع هذا فلا تختلط موجة بموجة، ولا يضيع تيار فى عباب تيار.

﴿**إن فى ذلك لآيات للعالمين**﴾ أى أن فيما ذكر لدلائل لائحة لأولى العلم الذين يفكرون فيما خلق الله، فيعلمون أن الله لم يخلق شيئاً عبثاً، بل خلق كل شئ لحكمة بالغة، فيها عبرة لمن تذكر.

فعين العلم هى التى تكشف أسرار هذه الآيات، وتطلع على ما أشارت إليه من دلائل قدرته تعالى لذوى العقول، وأولى العلم. قال تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فما أمرنا أن نعقل ونتعلم ونستفيد مما خلق الله. فالدرجة الأولى لصحائف العالم التى تشهد على صانع حكيم هى أصل خلقه السموات والأرض، ثم سلسلة تزيين السموات بنجومها، مع عمارة الأرض بأحيائها.

نعم إن فى هذا لآيات باهرات، آيات للمبصرين بعقولهم وأفهامهم. فهذه القبة الزرقاء من رفعها ؟ وهذا البساط من مهده ؟ وهذه الرياح التى تكون شمالاً ثم تتغير فجأة إلى جنوب، فشرق وغرب تزجى سحاباً وتزبده، ثم ينهمر ماء فراتاً، من مدبر هذا كله ؟ إنه الله العزيز الحميد. إنه من تدبير من لا شريك له.

* * *